محور بحوث العلوم الإسلامية

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات

المنظور القرآني في بناء المجتمع
ـ الأبعاد والخصائص ـ

بقلم
د. بودقزدام عمران (*)

ملخص

نسعى في هذا المقال من هذا المنطلق إلى تجلية المعالم الأساسية للمنظور القرآني في بناء المجتمع. هذا المنظور الذي يشكّل الضابط والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقات ومناهج وتوجّهات المجتمع، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، كما تنبثق عنها منظومة قيمه وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم معيارا مطلقا، ومعينا لا ينضب يُستلهم منه تجارب بناء المجتمع منطلقا ومنهجا ومقصدا عبر الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية: المنظور القرآني؛ المجتمع؛ الأبعاد والخصائص.

مقدّمة

يعدّ المجتمع مدخلا أساسيا لتحقيق البناء الحضاري الراشد؛ بوصفه المكلّف بتمثّل فلسفته للحياة وتفعيلها في أرض الواقع وفق منهجية شاملة ومتكاملة قصدا إلى تأسيس أنموذج نهضوي نوعيّ يستمدّ مضامينه ومناهجه من المرجعية العليا للمجتمع، ويلبي تطلّعاته ومقاصده في الحياة.

(*)أستاذ محاضر-أ- كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر1 البريد الالكتروني: amraneabounacer@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/08/16 تاريخ القبول: 2019/05/17

المنارة للاستشارات

ويعتبر القرآن الكريم المصدر الأساس الأوّل لهذه المرجعية، لما يتضمنه من رؤية كلّية متّسقة لأبعاد الوجود الإنساني – مبدأ ومنهجا ومقصدا ونظرا وتدبيرا– تعد بوصلة توجّه المجتمع في الحياة فكرا وحركة.

تشكّل هذه الرؤية الضابط والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقات ومناهج وتوجّهات المجتمع، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، كما تنبثق عنها منظومة قيمه الأخلاقية وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم معينا لا ينضب يُستلهم منه تجربة بناء المجتمع منطلقا ومنهجا ومقصدا.

نسعَى في هذا المقال من هذا المنطلق إلى تجلية الأبعاد الكلية للمنظور القرآني في بناء المجتمع، مع بيان عناصر التميّز فيه. وقد جاءت معالجتنا للمقال وفقا للخطوات المنهجية الآتية:

أولا: الإشكالية: ننطلق في هذا المقال من تساؤلات أساسية نحرّرها كالآتي:

1- ما المعالم الجوهرية للمنظور القرآني في البناء الاجتماعي الرّاسخ من حيث المنطلق والمنهج والمقصد، ومن حيث النّظر والتدبير؟ 2- ما هي الأبعاد الكلّية لهذا المنظور؟

3- ما هي أبرز خصائصه وعناصر التميز فيه؟

ثانيا: أهداف البحث:

أ- بيان سمو وتميز المنظور القرآني في بناء المجتمع، بوصفه الأنموذج المعياري المطلق الذي يستقى منه تجارب بناء المجتمع.

ب- تجلية البعد الشمولي والتكاملي في الرؤية القرآنية لبناء المجتمع، التي استوفت كل متطلبات بناء المجتمع منطلقا ومنهجا ومقصدا، وفي كل أنساق علاقاته.

ج- إبراز واقعية المنظور القرآني في بناء المجتمع وقابلية نقله من النظرية إلى التطبيق، مما يؤكد معايشته لآلام ومآسي المجتمعات مع السعي لتحقيق آمالها وتطلعاتها عبر الزمان و في كل مكان.

رابعا: المنهج الموظف:

المنارة للاستشارات

المنهج الغالب في المقال هو المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، فهو استقرائي من زاوية اتّجاهه نحو جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع وترتيبها وتصنيفها؛ ثم استخلاص الكلّيات التي تحكم التصورات والتدبير، والقصد من ذلك كله كشف أبعاد المنظور القرآني في بناء المجتمع. وهو تحليلي من زاوية التعمق في تفسير أبعاد المنظور القرآن، وإبراز عناصر التميز في المنظور القرآني لبناء المجتمع من خلال زوايا مختلفة.

خامسا: هيكل المقال: للإجابة عن التساؤلات السابقة، وتحقيقا للأهداف المتوخاة، وظّفنا خطة تضمنت العناصر المنهجية الآتية:

1- مفهوم المجتمع

2- أبعاد المنظور القرآني في بناء المجتمع

أ- البعد التصوري العقدي

ب- البعد الإيماني

ج- البعد التربوي السلوكي

د- البعد التشريعي الإجرائي

ه- البعد الفكري المعرفي

و- البعد السنني الحركي

ز- البعد الشهودي الحضاري.

3- خصائص المَنظور القرآني في بناء المجتمع:

أ- الشّمولية في النظر

ب- التّكاملية في أنساق العلاقات

ج- الفعّالية الواقعية

د- الفقه العميق بمداخل التغيير، والتدرّجية في عملية البناء

ه- الأخلاقية

و- السننية

ز- المقصدية

4- خاتمة: تتضمن أهم النتائج

المنارة للاستشارات

أولا: مفهوم المجتمع:

1- المجتمع لغة: مشتق من الفعل " اجتمع ضد تفرق"[1]، و المجتمع "موضع الاجتماع أو الجماعة من الناس."[2]

2- المجتمع اصطلاحا: عرّف بعدّ تعريفات حسب المنطلقات الفكرية والمعرفية لأصحابها:

أ- فعرف بأنه " كل مجموعة أفراد تربطهم رابطة ما معروفة لديهم و لها أثر دائم أو مؤقت في حياتهم و في علاقاتهم مع بعض."[3]

ب- وعرّف بأنه" مجموعة منظمة من الناس يعيشون سويا تربط أفرادهم مجمعة مشتركة من القيم والأهداف والصلات والمصالح المشتركة."[4]

جـ- وعرّف مالك بن نبي المجتمع تعريفا وظيفيا، حيث ميّز في توظيفه لمصطلح المجتمع بين المجتمع البدائي أو الساكن، وبين المجتمع التاريخي الذي دخل نطاق الحضارة، فالمجتمع الأول فاقد لوظيفته التاريخية، حيث يرى أن "كل جماعة لا تتطور ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك إلى التحديد الجدلي لكلمة (مجتمع)."[5]

أما المجتمع الثاني،"فهو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير."[6] ومن هنا يتبيّن أن هذا التحديد يخرج المجتمع البدائي الساكن، ويقتصر على المجتمع المتكيف المتحرك[7].

د- وعُرّف كذلك المجتمع المنتسب للإسلام بأنه" الملتزم بتعاليم الله وشرعة والمطبق لحدوده والخاضع لأوامره والمجتنب لنواهيه."[8]

يمكن القول ممّا سلف ذكره أن المجتمع هو مجموعَة مِن الناس تعيش معاً في شكل مُنظم وفي موقع مُعيَن، تترابط فيما بينها بِعلاقات ثقافية واجتماعية، ويسعى كُل واحِد مِنهُم لِتحقيق المصالِح والاحتياجات التي تحمِل معاني التعايُش السلمي بين أفراد المُجتمَع، والمُهِم في المُجتمَع أن أفراده يتشاركون هموماً أو اهتمامات مُشتركَة تعمَل على تطوير ثقافَة ووعى مُشترَك يطبع المُجتمَع وأفرادِهِ بِصِفات مُشتركَة تُشكِل شخصيَة هذا المُجتمَع

المنارة للاستشارات

وهويتهُ(9).

ثانيا: أبعاد المنظور القرآني في بناء المجتمع.

يمكنُ تحديد هذه الأبعاد في العناصر الآتية:

1- البعد التّصوري العقدي:

هيّأ القرآن الكريم للمجتمع أرضية فكرية تضمّنت رؤية كلية متّسقة للوجود، تشكّل بمجموعها عامل تحريك ودفع له نحو تفعيل رؤيته للحياة في أرض الواقع

ويعدّ التوحيد(*)حجر الزاوية في هذه الأرضية؛ لأنه يمثّل جوهر المرجعية الإسلامية الأصيلة، وروح الدين كلّه ونواته، لما تضمّنه من رؤية كلّية مطلقة ومتّسقة للوجود كلّه، مبدءًا، وماهية، ومقصدا، ووسائل، مبناها إفراد الله عزّ وجلّ بالوحدانية في الذات والأسماء والصفات والأفعال، والعبادة، والحكم والتشريع.

فالله عزوجلّ – وفق هذه الرؤية – مبدأ كل شيء، ومنتهى كل شيء، وبهذا "فوجوده تعالى وإرادته وأفعاله هي الأسس الأولى التي عليها يقوم بناء كل الكائنات، وكل المعارف، وكل أنظمتها. سواء أكان موضوع المعرفة هو عالم الذرة الصغيرة، أم النجوم الكبيرة، أم أعماق النفس، أم سلوك المجتمع، أم مسيرة التاريخ."(10)

رسمت هذه الرؤية الطريق لكلّ جوانب الحياة البشرية، ملبّية لتطلّعات الإنسان الروحية ورغباته المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحقّقة لكرامته ومكوّنة لشخصيته، في انسجام مع الفطرة الإنسانية، وهو ما يثمر نظاماً متكاملاً للحياة البشرية بمختلف أطوارها.

وعلى هذا الأساس يستمدُّ كل الخلق وجوده، وماهيته من هذه الحقيقة العظمى، إنشاءً، وتدبيرا وعناية، وإفناءً، وحسابا، وجزاءً. وبهذه الرؤية الكلية المتّسقة يشكّل التوحيد"سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود."(11)

كما حدّدت هذه الرؤية المتّسقة بوضوح وظيفة الإنسان والمجتمع في الحياة، وأنساق علاقتهم بالموجِد، والموجَد؛ فالإنسان مخلوق لله، أُرسل إلى الأرض لمقصد هو المقصد الأعظم المتمثّل في العبودية المطلقة لله تعالى، مصداقا لقوله عزّ وجلّ:﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(12)، وهو خليفته المكلّف بتعمير الكون التزاما ببنود عقد وعهد

المنارة للاستشارات

الاستخلاف في الأرض[13].

ولأهمية العقيدة والتّموقع المركزي للتوحيد شكّلت عملية ضبط تصور ومعتقد المجتمع عن الله والكون، والحياة، أولوية قصوى في المنهج القرآني؛ لأنّها تمثّل الأرضية الصلبة التي يُشيّد عليها صرح سمو المجتمع الأخلاقي، والروحي، والفكري، في توافق وتناغم مع قوانين الكون؛ ممّا يؤهّل لبناء حضارته.

قَصَدَ القرآن الكريم في ضوء هذه الرؤية المحكمة صياغة عقيدة الإنسان وفق مسلكين هما:

أ- التخلية: تتضمّن تطهير اعتقاد المجتمع من كل الشوائب التي عكّرت صفو التصور الفطري لحقيقة الوجود مبدأ ومنتهى، مثل: الكفر، والشرك، والنفاق، في شقّيه الاعتقادي والعملي، وهذا على أساس استنفار كل قوى الإدراك في الإنسان من مبادئ عقلية، و آلات حسية، ووجدان باطني، وغرائز فطرية، فتتفاعل جميعها، ويقوم كل منها بدور يقرب من الاقتناع بالحقيقة والإيمان بها.

نذكر من الآيات التي يستدل بها في هذا المسلك ما جرى من محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(45)**﴾[14].

ففي هذا الخطاب الإقناعي استنفار للعقل في أول الكلام علامة على أن العقل هو سلطان المدارك، ثم استنفار للعاطفة من مدخل البنوّة لعلها ترقّ للقبول، ثم استثارة لفطرة الخوف والحرص على المصير بالإنذار بعذاب الله، وهكذا فالاستدلال القرآني هو استدلال تستخدم فيه قوى الإنسان الإدراكية مجتمعة، وإن يكن العقل هو الأبرز فيها كما يفيد ترتيبه في الآية الآنفة الذكر.

ب- التحلية: التي تقصد بناء تصوّر عقدي على أساس من اليقين الخبري، والعقلي، وبتعبير أدق على أساس حقائق الوحي، وقواطع العقل، ويعدّ هذا المسلك ممّا تفرّدت به

المنارة للاستشارات

العقيدة الإسلامية، حيث لم تكتف بتبليغ الحقائق الإيمانية بل برهنت على صحتها بالبراهين والحجج المتنوّعة العقلية والحسية والوجدانية، مراعاة للقوى والملكات والاستعدادات المودعة في الإنسان.

نذكر من الآيات التي استجمعت جلّ هذه المعاني قوله تعالى:﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86)سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ(89) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(91)﴾[15].

حَوت هذه الآيات أساليب منطقية حيوية؛ موجَّهة أسئلة عميقة إلى المخاطَب، تتعلق بماهية وجوده في الحياة ليجيب عنها إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التي استهلت بها الآية لإيراد الدليل عليها، مع تعدُّد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

فلو تأمَّل الإنسان بعقله وفكره آياتِ الله المبثوثةَ في الأرض وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرةَ الله تعالى وأنها دليل على وحدانيته، فتجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يُعبَد من دونه من الأنداد والشركاء.[16]

وعرض القرآنُ الكريم كذلك موضوعَ الرزق بطريقة أيقظت مكامن الفطرة وحرّكت أعماق الوجدان لمعرفة الله تعالى، وأنه سبحانه المتفرِّد بالرزق والعطاء، وأنه الرزَّاق ذو القوة المتين، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ* فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[17].

قال الأستاذ محمد المبارك في وصف المسلك القرآني في إثارة الوجدان: "القرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، وعن طريق قضاياه ومشكلاته؛ ليحرك تطلُّعَه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره

المنارة للاستشارات

البعيد، ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله، ومستعداً لقبول نتائج المنطق السليم مع منفعته."[18]

تتبوّأ العقيدة بهذه الأدوار الهامّة مكانة مفصلية بارزة في الضمير الجمعي للمجتمع، لتشكّل الضابط، والنّسق الناظم الذي يحدّد منطلقاته، ومناهجه، وتوجّهاته، فتنبثق عن العقيدة منظومة أفكاره، ومفاهيمه، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته وشريعته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري.

وقد حرص القرآن الكريم في هذا الإطار على تحقيق الثمرة من تفاعل المجتمع مع عقيدته وهو أن تنعكس ايجابياً على المجتمع، دافعة له نحو فضاءات السّعي السّنني، والحركية الإيجابية، ممّا يحمله على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، لذا ستركّز جهوده بالخصوص على تنزيل كليات الاستخلاف التي تزاوج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقي التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة. وما يحيلنا للحديث عن ثمرات التصور العقدي المتمثّلة في الفعّالية الإيمانية في الحياة.

2 – البعد الإيماني:

من المقاصد الأساسية لترسيخ التصور العقدي تعميق بُعْد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقّق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتّوكل، والمحبة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنى، وكل ما من شأنه أن يوثق الصلة بالله، فتحقّق القلب بالإيمان بالله تعالى سـ"يصوغ كيان الفرد صياغة متميزة، فيجعله ينمو صعدا في سلم الخير والإثمار والفعالية."[19]

والفضل في ذلك يعود للقرآن الكريم الشافي للأمراض النفسية والروحية التي لطالما عانى منها الإنسان، من قلق و حيرة ووساوس، قال تعالى:﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾[20]، فمن وصل قلبه بالله، سكن واطمئنّ واستشعر الحماية والأمن[21]، كما يُشفى من "الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان. . .، وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى

المنارة للاستشارات

التحطم والبلى والانهيار.. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين."[22]

أسهمت الروح الإيمانية في إحداث نقلات نوعية في المجتمعات التي حلّت بها، حيث قوّضت أولا: أُسس البناء الاجتماعي الجاهلي الذي كان قوامه العصبية للقرابة، وتعزيز تقسيمه الطبقي والقَبَلي، المشكّل من طبقتي الأشراف، والعبيد، والتمييز بين الناس على أساس اللون أو المال أو الجنس.

وأقامت محلّ هذه العادات البائدة مقاييس جديدة تقوم على أسس معنوية سامية هي التقوى والفضيلة والإخاء الإنساني، والمساواة بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة، قال تعالى:﴿**يا أيُّها الناسُ إنّا خَلقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى وجَعَلنَاكُم شُعُوباً وقَبَائلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم**﴾[23].

كما نقلت الأفراد من حالة التناقض والصراع إلى حالة التآلف والتعاون والتلاحم، فشكّلوا أُمّة واحدة، تبوّأت منزلة رفيعة بين الأمم الأخرى، بعد أن كانوا مجرّد قبائل وجماعات متفرّقة ومتناحرة، لا قيمة لها. ويضاف إلى ذلك قيامها بتغيير جذري للعادات والتقاليد الجاهلية البالية التي قوّضت تماسك المجتمع الجاهلي، وأساءت لكرامة الإنسان، وسبّبت له العنت والمشقة، فحلّت محلّها قيم سلوكية فطرية ساهمت في تمتين نسيج المجتمع، وإعلاء قيمة الإنسان.

يُجَلِّي هذا ما ورد في مسند الإمام أحمد ، عندما سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فقال: "ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم"، فأجابه جعفر بن أبي طالب فقال له:" أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قال فعدد عليه أمور

المنارة للاستشارات

الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا. "[24]

وعلى هذا الأساس فإن استعادة الباعث الإيماني وتنميته لأجل تفعيله، وترسيخ الروح الإيمانية في المجتمع، يعدّ أقوى ضمانات تماسكه وتلاحمه، وأمتن أسباب وحدته ومناعته؛ لما له من دور فعّال في صهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات، في رحاب المجتمع التوحيدي الواحد على أساس الأخوّة الإيمانية، التي تثمر أداءً اجتماعياً نوعيا، يقوم على أساس التعاون، والتناصح والتكافل، لا على التّنافس المذموم، والتجاذب، والتنافر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[25].

وبهذا التمثّل الفعّال يُصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجبهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة

3- البعد التربوي السلوكي:

يُقصد بالأخلاق منظومة المبادئ القيمية أو المعيارية التي ترسم للسلوك البشري –الفردي والمجتمعي– طريقه القويم بما ينسجم مع بواعث النهوض ومقاصده.

تضمن القرآن الكريم منظومة قيمية – نظرية وتطبيقا– أسّست لنظرية نوعية متكاملة في البناء التربوي للإنسان والمجتمع، حيث سعت إلى تجديد **سلوك الإنسان** عبر عمليتين هما:

أ- التخلية: تتّجه إلى تطهير النفس من العلل والآفات التي تطمس إنسانيتها، وتفكّك مجتمعها، وتفسد كونها.

ومدار هذه العملية التحقّق الكامل بمقامات إيمانية رفيعة على أساس العبودية المطلقة لله تعالى، وهو ما من شأنه أن يستأصل مُهلكات القلب من جذورها، نذكر من هذه المقامات على سبيل المثال لا الحصر: المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعاتبة، والتوبة والإنابة، والتواضع، والقناعة، والخوف والرجاء، والإخلاص.

نَذكر من الآيات القرآنية الواردة في هذا المسلك قوله تعالى:﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[26]. وقوله عزّ وجل:﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[27].وقوله أيضا:﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[28]. وقوله

المنارة للاستشارات

جلّ جلاله:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[29].

ب- التحلية: تقصد تعبيد الطريق للنفس صوب ترقّيها في مقامات إيمانية، نذكر منها: الصدق، والتوكّل والمحبة، والتقوى، والشكر، والصبر، و كذلك تخلّقها بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى على أساس العبودية الكاملة لله تعالى.

نذكر من الآيات التي تستحضر في تمثل هذه المقامات: قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[30]. وقوله عز وجل:﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[31]. وقوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[32].

ومن أهم الوسائل المشروعة في هذه العملية أداء العبادات القلبية والبدنية، مثل الصلاة، والحج، والذكر، والتدبّر.

تجلّت ثمار هاتين العمليتين في السلوك العملي للإنسان والمجتمع بمختلف أنساق علاقاتهم، والتي تتركّز في الأنساق الآتية:

أ- نسق علاقته بالله: بتمثّل الكلّيات الإيمانية التي توثّق صلته بالله: مثل: التوكّل والاستعانة، والمحبّة، والخوف والرجاء، والتوبة والإنابة، وغيرها من الكليات التي ترفع منسوب الإيمان لديه، وتبوّأه مرتبة سامية.

ب- نسق علاقة الإنسان مع نفسه: وتقوم بالأساس على الخضوع والافتقار، والعجز المسجّى بالمحبة.

ج- نسق علاقة الإنسان مع مجتمعه: يتحقّق هذا النسق عن طريق تنمية مهارات الاتصال والتواصل الاجتماعي والثقافي مع مجتمعه، على أساس الانتساب الإيماني الذي يجعله منجذبا إلى شركائه في الإيمان، مرسّخا ومعزّزا النزعة الاجتماعية الكامنة فيه، كما تجعله غير معزول عن تيار الوعي العالمي، ومعتزا بثقافته وتراثه وتاريخه[33].

وقد نمّت العقيدة هذه النزعة بأساليب عدّة منها: إيقاظ حسّ الشعور بالمسؤولية اتجاه الآخرين، وتنمية روح التضحية والإيثار لديه، ودفعه للانصباب في قالب الجماعة. وبهذه التنشئة يندمج الفرد في المجتمع، محافظا على تماسكه، ومتناغما في حركيته مع منطلقات وتوجّهات مجتمعه.

ه- نسق علاقته مع الإنسانية: يتجلّى هذا النسق في علاقة المجتمع مع ما سواه من

المنارة للاستشارات

الأناسي – من أفراد الأسرة الإنسانية–، حيث يمثّلون بالنسبة إليه مشروع مسلم، ينبغي إيصال أنوار التنزيل إليه، لأجل استعادة فطرته.

و- نسق علاقة الإنسان مع كونه: تكون على أساس الرّفق به، والحفاظ على توازنه، وتجنّب الإفساد فيه، عبر التّسخير الوسطي لموارده وثرواته، والحفاظ على ديمومتها للأجيال اللاحقة.

زاوج القرآن الكريم في البناء التربوي للمجتمع بين عدّة أساليب. نذكر منها: التربية بالقدوة، والتربية بالوعظ والإرشاد والتذكير، والتربية بالترغيب والترهيب، والتربية بالقدوة الحسنة، والتربية بسرد القصص وضرب الأمثال.

ولقد جسّد النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأخلاقية القرآنية أعظم تجسيد، حيث كان الأنموذج القدوة في تمثّل منظومة الأخلاق إلى درجة الكمال، فاستحقّ من الله سبحانه وتعالى تزكية وشهادة عظيمة، تجلّت في قوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(34)، وكذلك بما وصفته به عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لمّا سئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"(35).

وكانت تزكية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما شهد المولى عز وجل في قوله:﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾(36) .

وهنا تحمّل النبي صلى الله عليه وسلّم مسؤولية جسيمة اتجاه أمّته، فكان عليه أن يبدأ مهمة تربية المجتمع الجديد، على أساس قيم أخلاقية رفيعة، مستمدّة من رسالة السماء، مع المحافظة وتكميل الفضائل والمكارم، التي عرفتها المجتمعات الإنسانية السابقة، وتطهير المجتمع من كل رواسب الماضي وانحرافات الناس الخلقية، والاجتماعية، والنفسية.

ثمّ توجّب علي النبي صلى الله عليه وسلم تحويل الطاقة المبعثرة والكامنة للأفراد إلى بناء متكامل وشامل يسمو بالمجتمع روحيا وأخلاقيا، ويرتقي به تعميريا وماديا، وفق تصور وقيم وتشريعات الوحي، وأنموذجه الواقعي الحي–سيرة النبي صلى الله عليه

المنارة للاستشارات

وسلم، قال عزّ وجل: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ**﴾[37] .

تتجلّى مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

4- البعد التشريعي الإجرائي:

تنزّلت الرسالة الإسلامية في مجتمع طغت فيه عبادات وتشريعات وثنية منحرفة اتخذت أشكالاً مختلفة من سجود للأصنام وتقرب لها بالذبائح، والأنصاب والأزلام، وانتشار الربا وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها من الرذائل والموبقات.

وفي هذا الجوّ الوثني الملوّث أعاد الإسلام للعبادة دورها الحيوي، لكي تعبّر عن الفطرة التي فُطر عليها بنو آدم، ولتلبيّ تّطلّعات الإنسان الرّوحية العلوية التي توطّد صلته بالسماء، كما أعاد الاعتبار للضوابط والقواعد التشريعية التي يستعين بها الإنسان والمجتمع في مختلف أنساق علاقاته.

أكدّ القرآن الكريم في هذا الإطار أنّ العبادة هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهو ما يتجلّى في قوله تعالى :﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(56)مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾[38]، كما بيّن عز وجل في الآية التّالية أنه مستغنٍ عن خلقه، فلا ينتفع بأوبة المؤمنين، ولا يتضرّر بإعراض الجاهلين، لذلك فكلّ ثمرات العبادة يجنيها صاحبها.

ومماّ لا شك فيه أنّ "الأصل في العبادات أنها تؤدّى امتثالا لأمر الله، وقياما بحق الله على عباده وشكراً لنعمه التي لا تنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في الحياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود"[39]، فهي في محصّلتها ابتلاء للإنسان، كما دلّت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾[40]. لذا يتوجب على كل

المنارة للاستشارات

مسلم أن تكون غايته في كل عبادة إرضاء الخالق جلّ وعلا، وامتثال أمره في كل حركاته وسكناته، سواء علم آثار وأسرار العبادات أم جهلها.

والنّاظر في التشريع الإسلاميّ، يجد من الحكم والفوائد ما لا يحصيه عقلٌ ولا يستوعبه علمٌ ولا يحيط به إلا العليم الحكيم المحيط بأسرار خلقه، فتضمّن ما يُصلح جميع أحوالهم النفسية، والفكرية، والجسدية، والاجتماعية والاقتصادية، قال الله عزّ وجلّ:﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾(41)، وقال أيضاً:﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾(42).لذلك فالله لم يخلق الخلق ليعذّبهم، ولا ليجدوا التّعاسة في حياتهم، وإنما زوّدهم بكل ما يقيم حياتهم على الخير والسعادة.

وتحقيقا لهذه الحكم والأسرار نجد أنّ "الإسلام نقّى هذه العبادات جميعاً من كل شائبة، ورقّى كل نوع منها إلى غايته، وأودع فيها الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمته إصلاح الفرد، وإسعاد البيت، واستقرار الجماعة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين."(43)

فالشريعة إذن، جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان في العاجل والآجل.أما في الآجلّ فهو الفوز بالجنة مع الأبرار﴿**وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ**﴾(44)، وأما في العاجل فينال جزاء عمله الصالح من"الصلة بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.

كما تبعث العبادات في الإنسان الشعور بالرضى والأمن، وطمأنينة القلب، وترزق البركة والصحة، والسرور بالعمل الصالح؛ مما يحدث أثرا في الضمير و الحياة(45). قال تعالى:﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾(46)، جاء في تفسيرها "يعني في الدنيا"(47).

ولا تنحصر العبادة في الإسلام في مفهومها الخاص، أي في أداء الشّعائر التّعبدية بل هي كما عرّفها ابن تيمية بقوله:"اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"(48)، فيدخل في هذا المعنى أعمال تستوعب يوم الإنسان منذ طلوع الفجر إلى نهايته، بل تستوعب حياته كلها من بلوغه إلى مماته.

المنارة للاستشارات

5- البعد الفكري المعرفي: سعى القرآن إلى تنمية ملكة التفكير عند الإنسان عبر صياغة وبرمجة تفكيره على أساس قوانين العقل الفطرية المودعة فيه، وهو ما يمكّنه من اكتساب مهارات الاستقراء والاستنباط والنقد، مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ ممّا يثمر منظومة تفكير مؤهّلة للتّفاعل مع الكون تسخيرا وتعميرا.

نذكر من أوجه عناية القرآن بتنمية ملكات العقل ما يأتي:

أ- الترغيب في التفكير والحث عليه:

لقد أعلى القرآن الكريم من شأن التفكر، حيث وردت مادة"فكر" في القرآن الكريم في نحو عشْرين موضعًا، ولكنَّها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ من هذه الآيات قوله تعالى :﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**﴾(49)، وقوله عز وجل:﴿**أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾(50)، وقوله جل جلاله:﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(51).

وقد انتزع بعض الباحثين من ذلك أن الله تعالى أبان ولفت أنظار عباده:" بأن هذا العمل مرتبط بذات، وأنّه لا يكون فيما لا طائل تحته."(52)

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى:﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾(53)،:"وقوله (لعلكم تتفكرون) غاية هذا البيان وحكمته... لِيَحْصُل لكم فكر أي علم في شؤون الدنيا والآخرة"(54).

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى:﴿**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(55). "أي مثل هذا التفصيل نُفَصِّل؛ أي نُبَيِّن الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع... واللام في (لقوم يتفكرون) لام لِأَجْل. والتفكر: التأمل والنظر"(56).فلأجل أن تتفكروا نفصل الآيات.

يمكن القول أن التفكر وفق الرؤية القرآنية هو تنشيط وتفعيل للذهن في آيات الله الواضحات في الأنفس والآفاق من أجل أداء مهام الاستخلاف والعبودية لله تعالى.

ب- إيراد القرآن لنماذج التفكير السليم:

وممّا يبرز اعتناء القرآن الكريم بإعمال العقل أن ضَرَبَ لنا نماذج المتفكرين وما كان لتفكيرهم مِن ثمرات، فيقتدي الإنسان بهم رغبة فيما توصلوا إليه، يقول تعالى:﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ**

المنارة للاستشارات

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(57)

قال محمد عبده في تفسيره للآية:"ربنا ما خلقت هذا باطلا: هذه حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكرهم وذكر الله عز وجل، ويستنبطون مِن اقترانهما الدلائل على حكمة الله، وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان، التي تربط الإنسان بربه حق الربط. وقد اكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم، وفكرهم، فَطَيّ هذه وذِكْرُ تلك مِن إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى، عندما يهتدون إلى شيء مِن معاني إحسانه وكرمه، وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله في هذه الأحوال بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال... فذكر الله حالهم، وابتهالهم، ولم يذكر قصتهم، وأسماءهم لأجل أن يكونوا قدوة لنا في علمهم، وأسوة في سيرتهم."(58)

كما ركّز القرآن الكريم في الجانب المعرفي على تنمية مهارات التفكير العلمي المنطقي، ونعني بها إعادة صياغة وبرمجة تفكير الإنسان على أساس قوانين العقل الفطرية التي أودعها فيه متمكنا من فقه عمليات القياس والتحليل والتركيب، والنّقد، والاستقراء، والاستنباط، والمقارنة مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ ممّا يثمر منظومة تفكير مؤهّلة للتّفاعل مع الكون تسخيرا وتعميرا.

نذكر من أبرز ما تضمّنه القرآن الكريم من تدريب للعقل على التفكير العلمي المنطقي على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

- تدريب العقل على القياس والاستنباط:

ذكر العلماء أمثلةً كثيرة لتوظيف القياس والاستنباط، مثلما ورد في محاورة ابراهيم عليه السلام للنمرود؛ حيث أقام عليه الحجةَ بقياس بديهي، كما جاء في قوله تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي**

المنارة للاستشارات

﴿كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[59]

وهو قياس مِن الشكل الأول مِن أشكال القياس عند المناطقة[60]، فالإله هو القادر على كل شيء، ومِن قدرته أن يُطْلِع الشمس مِن المشرق، فهو إذن الإله الحق، والنّمرود لا يستطيع أن يأتي بالشمس من المشرق فضلا من المغرب فهو إذن ليس الإله الحق؟

وورد في القرآن الكريم قياس التمثيل، مثلما جاء في سياق نفي ألوهية عيسى عليه السلام من خلال مقارنته بآدم عليه السلام، جاء هذا في قوله تعالى:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.[61]

قال بن عاشور في سياق تفسيره للآية:"وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليه عيسى ، ورد مطاعنهم في الإسلام وهو أقطع دليل بطريق الإلزام؛ لأنهم قالوا بإلهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمة من الله وليس له أب، فقالوا: هو ابن الله، فأراهم الله أن آدم أولى بأن يدعى له ذلك، فإذا لم يكن آدم إلها مع أنه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم .ومحل التمثيل كون كليهما من دون أب ، ويزيد آدم بكونه من دون أم أيضا[62].

ومن الآيات التي تضمنت قياس التمثيل قوله عز وجل:﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[63].

فتضمنت قياس إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها، حيث أثبتت المعاد عن طريق المماثلة بين إحياءٍ محسوس ومشاهد وهو إحياء الأرض بعد موتها، بخروج النبات منها وعودة نشاطه الحيوي بعد جفافه أو ركوده وتوقّفه عن العمل في الشتاء ، وبين إحياء الأموات يوم القيامة.

يظهر جليا في الأمثلة السابقة تحفيز القرآن الكريم للعقل على التفكير العلمي عبر ضرب الأمثال والنماذج صقلا للعقل على مهارات المقارنة والمقايسة للوصول إلى الحكم الصحيح.

– تدريب العقل على الاستقراء:

المنارة للاستشارات

سَعَى القرآن الكريم إلى تعزيز التفكير الاستقرائي عند الإنسان، بوصفه منهجا ينتقل من الحقائق الجزئية والظواهر الواقعية إلى الحقائق العامة(64)، فهو وسيلة من وسائل الاستدلال على سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق. وفي هذا الإطار نجد القرآن الكريم يحث الإنسان على توظيفه وتمثله نظرا وتدبيرا عبر الاعتبار بما سبق، واكتشاف ما يتسم به الكون من إِحْكَامٍ في الخلق، بجعله مدخلا لعملية التسخير والتعمير، قصدا إلى معرفة الخالق تعالى وعظمته وقدرته.

وقد وظف القرآن الكريم الاستقراء بنوعيه: التام والناقص، ولكن أكثر استعماله للاستقراء الناقص، وأعطاه دلالة قطعية في إثبات بعض سنن الله تعالى في الكون، وفي حياة البشر وإثبات بعض العقائد، وصفات الذات الإلهية.

نذكر من الآيات التي وظف فيها القرآن الكريم المنهج الاستقرائي للاستدلال ما يأتي:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(38)﴾.(65)

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا(38)﴾(66)وَرَدَ هذا بعد استقراء الآيات السابقة أمهات الرذائل التي ينبغي اجتنابها.

﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(35)﴾(67)، ورد هذا بعد استقراء الآيات السابقة لأعظم الملذات التي يمكن أن يطمح إليها الإنسان في هذه الدنيا.

ومن الآيات التي دعا فيها القرآن الكريم الناس إلى استخدام الاستقراء منهجًا للاستدلال ما يأتي:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11)﴾.(68)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(21)﴾.(69)

المنارة للاستشارات

ومن الآيات التي أشارت إلى قانون العِلِّيّة، الذي يمثل الأساس الأول لتسويغ التعميمات الاستقرائية، قوله تعالى:﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(35)﴾.[70]

إن المتتبّع لآيات القرآن الكريم يجد التدريبَ العمليَّ للعقل في التعامل مع الموجودات، بالربط بين الآفاق والأنفس والهداية، انطلاقا مِن الآفاق إلى الأنفس، ومِن الأنفس إلى الآفاق، ومِن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومِن الآفاق والأنفس إلى آيات الوحي، في دائرة تشهد كل وحدة منها على الأخرى.

وتعد الملاحظة والمقارنة من المهارات المتضمنة في المنهج الاستقرائي التي سعى القرآن لتنميتها في عمليات التفكير عند الإنسان، حيث دربه القرآن الكريم على البحث في الكيفيات، والوقوف على دقيق الفروق واكتشاف القوانين والعلاقات المؤدية إلى التسخير، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَت وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَت وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت﴾[71].

كما ركّز التوجيه القرآني على كيفية خلق الإبل، وكيفية رفع السماء، وكيفية نصب الجبال، وكيفية تسطيح الأرض[72]، وكل توجيه مِن تلك التوجيهات حَقِيقٌ بأن يقوم علمٌ كامل يُجيب عن ذلكم السؤال. بل إنّ كل مسلم يدرس هذه العلوم لَيَشْعُر أنه يؤدي عبادة لله تعالى، واستجابة لندائه عز وجل، في كل جزء مِن أجزاء علمه.

ولئن كان القصد الأول مِن الآية هو الربط بين الغيب والشهادة، فإن مقدِّمَة ذلك وما يجعل الربط قويا محكما هو تحقيق ما توحي به الآيات؛ مِن الوقوف على الكيفيات، بما يجعل النظر والعقل يعملان معا ليصل الإنسان في الأخير إلى معرفة قوانين الخلق مِن جهة، ويعمل على حسن التسخير والخلافة مِن جهة أخرى.

تثمر عملية بناء الإنسان على أساس تمثّل كلّيات التوحيد وقواعد الاستخلاف انضباط منظومة تفكيره بنسق وناظم واحد توحيدي في التفسير والتّحليل، بحيث ينسب كلّ الظواهر والحوادث الكونية – اجتماعية ومادية– على تعدّدها وتعقّدها إلى مبدأ واحد وعلة واحدة، فلا تلتبس عليه كثرتها، وتعدّد نواميسها، وبهذا يكون منهج ونسق الرؤية

المنارة للاستشارات

التوحيدية أشبه بعمل البوصلة، الناظمة والضابطة لتصورات ورؤى وحركية الإنسان في الواقع، ممّا يكرّس هيمنة الرؤية التوحيدية في كل شعاب الحياة المعنوية والمادية.

يخوّل للإنسان المسدّد بالرؤية التوحيدية أن يتبوّأ مرتبة الإشراف والسلطنة على الحياة في المستوى الإنساني ماضيا وحاضرا ومستقبلا، حيث ينظر في الماضي بهدف الاعتبار، وتسديد وتصويب مسيرة الإنسانية في الحاضر والمستقبل، كما يهيمن على الحياة في المستوى المادي، فيستثمر قوانين الكون لتعمير الأرض في إطار قواعد وكليات الاستخلاف[73].

تعتبر هذه الرؤية المتميّزة هندسة قرآنية خالصة، أثمرت ثورة منهجية، في نظم تفكير الإنسان، وطرائق عمله، حيث انطلقت من استنفار العقل لتحصيل المعرفة اليقينية الشاملة لعالمي الغيب والشهادة، والوجود الروحي والمادي بالتفكّر والتدبّر والاعتبار، والتعقّل، والبينة والبرهان، وذمّت في السياق نفسه تعطيل ملكات العقل، بالتلبّس بآفات التقليد، والتعصب، والجمود.

نقل القرآن الكريم بهذه الصياغة النوعية تفكير الإنسان من طور الغرق في المثاليات التي آلت به إلى الركود والانعزال عن الواقع، إلى طور العقل الفعّال الذي يمضي بالإنسان قدما نحو استثمار نواميس الكون – المادية والاجتماعية – لأداء مهامّ الخلافة في إطار العبودية المطلقة لله تعالى. ممّا يثمر بناء حضاريا شامخا، تتجلّى فيه الثمرة المرجوّة من تفاعل الإنسان – المسدّد بالرؤية التوحيدية وكليات الاستخلاف – مع الكون، وهي العلم المنضبط بالتوحيد.

6- البعد السّنني الحركي:

تضمّن القرآن الكريم توجيهات تبعث الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع، حيث حث على التعمّق في فهم واستيعاب السنن، عبر النظر إلى آيات الله في عالم الأنفس والآفاق نظرة الكاشف لقوانينها، المحيط بأبعادها وآثارها، بهدف تسخيرها وتعمير الأرض على هداها في إطار تفعيل القواعد الكلية للاستخلاف في الأرض؛ ممّا يثمر مجتمعا فاعلا، متكيّفا مع واقعه، ومنضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده.

المنارة للاستشارات

وفي هذا الإطار وصف عماد الدين خليل القرآنَ الكريم بأنه: "قدم .... أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل مِن مُجرد العرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية "(74).

نذكر من التوجيهات القرآنية الواردة في هذا الشأن ما يأتي:

أ- التنبيه إلى وحدة السنن :

تجري نواميس الكون والحياة في نسق مطّرد، وضعها الله سبحانه وتعالى لحفظ نظام الحياة ودوام بقائها، لذا "فإن كل ما يقع فيه من كائنات وظواهر وتصاريف إنما هي راجعة إلى نواميس موحّدة"(75).

هذا التركيز على النزعة التوحيدية في تفسير نواميس الكون هو الذي أرشد إليه الله تعالى في سياق المؤاخذة لفرعون و آله بسبب فكرهم المشتّت تبعاً لعقيدتهم المتلبسة بالشرك، قال عز وجل :﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ** ﴾(76)، فالفكر التوحيدي يفسّر ظواهر القحط و الرخاء بمبدأ موحّد راجع لله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ**﴾، "و لكن آل فرعون عدّدوا في ذلك أسباباً موهومة من التطيّر بموسى ومن معه في حال القحط، ومن استحقاقهم الذاتي في حال الرخاء (77).

وخضوعاً لوحدة نواميس الكون فإن بني آدم مصيرهم واحد وهو الموت، بل كل من على ظهر هذه المعمورة، قال تعالى:﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾(78). فهي دار لا مفر من ولوجها.

وما دام مصيرهم واحد وهو السير نحو الموت، فلما التكبر والأنانية والغرور، والتميّز عن سائر الناس، إنها بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم(79).

كما نبّههم الخالق في القرآن الكريم إلى أنهم تناسلوا بطريقة واحدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(80). ولهذه الحقيقة أثرها النفسي، فهي تقتل الكبر والتعجرف من

المنارة للاستشارات

القلوب، وبالتالي ينضبط كل سلوكهم فيما بينهم على أساس التعاون و التراحم.

وإذا أدرك الإنسان وجود قانون يحكم الكون فإنّ حركته فيه ستتّسم بمرونة وسلاسة، فيحدد الهدف، ويعلم الطريق المناسب للوصول إليه من دون شك أو قلق أو خوف، وبوقوف الإنسان المسلم في العهد المكي وما جاء بعده من العهد المدني مروراً بالفتوحات الإسلامية على حقيقة السنن الكونية والتاريخية واستفادته منها يوماً بعد يوم، استطاع تجاوز العراقيل وتقليص الزّمن للوفاء بالأمانة القائم عليها على أكمل وجه .

ب- التأمل في أحوال الأقوام السابقين للوصول إلى اكتشاف السنن الحاكمة:

قرّر القرآن الكريم أن التاريخ البشري يخضع إلى سنن ثابتة، فهو:" لا يتحرك من فوضى وعلى غير هدف، وإنّما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء...سواءاً بسواء..، وإنَّ الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنّما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك.."([81])، قال تعالى:﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾([82]) أي قدر الله أن تمضي هذه النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول، لتحقق حكمته في الخلق والتكوين.

ولهذا أوجب على الأمة أفرادا ومجتمعات النظر والتدبّر والتفكر في أحوال الأمم الغابرة، واستخلاص العبر من مآلها. نذكر من هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾([83]) .

قال صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية:" هي دعوة إلى التأمل في مصائر الغابرين..، وهم خلق من خلق الله، تكشف مصائرهم الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية، فسنة الله هي حق ثابت يقوم عليه الوجود، بلا محاباة ...، وهي دعوة إلى إدراك حقيقة هذه الحياة، وروابطها على مدار الزمان، وحقيقة هذه الإنسانية الموحدة المنشأ والمصير على مدار القرون، كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته، وقيمه وتصوراته، ويعقل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعا، وعن وحدة السنة التي تحكم هذه الأجيال جميعا، ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعا ...، وهي دعوة إلى إدراك وحدة البشرية، ووحدة

المنارة للاستشارات

الدعوة، ووحدة العاقبة في أجيال البشرية جميعا"[84].

إنه تتبّع لأحوال الأقوام؛ رَصّداً لمواقف وأسباب ونتائج، تتكرر مُشَكِّلَة سُنَّة مُطَّرِدة، ووقوفا على العامل الحقيقي في تكرر السُنّة، ثم بعد ذلك يتوعد القرآنُ الكفارَ بأن السُّنَةَ لن تتأخر، ما دامت أسبابها متوفرة.

نذكر من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم في إطار التدبر في أحوال الأمم المجتمعات سنن التدافع، والابتلاء، والتداول، والتجديد. سنكتفي في هذا السياق بذكر أنموذجين هما:

– **سنة التدافع:** وهي سنة مطردة في الحياة البشرية[85]، وتعني "تسابق وتزاحم وتغالب دائب بين الرّغبات والإرادات، وبين الحاجات والتّحديات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الثقافات والحضارات." [86]

أما التّدافع بين الأفراد فيكون دائماً بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وغيرهم، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع، وذلك لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، وقد "قضت إرادة الله تعالى أن تحكم هذه السنة الاجتماعية حركة الاستخلاف البشري "[87] بناءاً على حضوره في ساحة التدافع، كما نبهت على ذالك القاعدة القرآنية قال تعالى:﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[88].

وقضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والسحق للباطل وأهله، قال تعالى:﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[89]وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى.

– **سنة التداول:** يقصد بالتداول أو المداولة هنا "حركة توالي وتعاقب الجماعات والثقافات البشرية على مسرح الحركة الاستخلافية المفتوح على تجارب حضارية متواصلة بلا هوادة"[90]، وهي هدف تتجه نحوه كل الجهود البشرية من خلال سنة التدافع[91]، والتداول سنّة حتمية لا يمكن التخلص منها أو الإعراض عنها بحال، قال تعالى:﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[92]، وقال أيضاً: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا**

المنارة للاستشارات

أَمْثَالَكُمْ ﴾[93]، إذ توضع في حلبة التدافع كل الأمم والشعوب للوصول إلى القيادة الحضارية، وكلما كانت فعّالية الإنسان، وبذله في إطار خصوصيته الثقافية وتميزه الحضاري كان الوصول إلى التفوق الحضاري والاستخلافي.

7- البعد الشهودي الحضاري:

حث القرآن الكريم الأمة على التحقّق بمرتبة الشهود الحضاري، بوصفها الأمة الوسط كما جاء في قوله تعالى:﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... الآية** ﴾[94] .

بيّن سيد قطب مفهوم الأمة الوسط الشاهدة على الناس من خلال هذه الآية، حيث قال :" إنّها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد...، وإنها الأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الاعتدال والقصد، ومن الوسط بمعناه المادي والحسي...، وأمة تلك وظيفتها، وذلك دورها، خليقة بأن تحمل التبعة وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقوامة تبعاتها، ولابد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى، ليتأكد خلوصها لله وتجردها"[95].

ويمتلك المجتمع في إطار سعيه للتحقّق بالشّهود في بنيته من عناصر القوة ما يخوّل له تبوّأ مرتبة الشهادة، من أهمّها على الإطلاق ثراء منظومته الفكرية – العقيدة- ، والقيمية – الأخلاق – النّابعة من مصادر يقينية مطلقة، تمكّنه من تقديم بديل حضاري يرتكز بالأساس على منظومة قيمية وروحية سامية، وهو الجانب الذي تفتقده الحضارة الغربية القائمة على أساس مادّي صرف.

نذكر من أهمّ مفاصل هذه المنظومة: الكلّيات الإيمانية القائمة على أساس براهين العقل، وحقائق الوحي، وصفاء الفطرة، وشفافية الوجدان، والكليات الأخلاقية التي تتضمّن مسلك السير القلبي إلى الله عبر الترقّي في مراتب العبودية، ومسلك تزكية النفس، ومسلك الأدب مع الخلق، والكلّيات التشريعية التي رسمت أنساق علاقة الإنسان مع ربّه، ومع نفسه، وأخيه الإنسان، وكونه.

تكوّن كل هذه المقوّمات نظرية متكاملة لبناء الإنسان والمجتمع من الناحية الفكرية –

المنارة للاستشارات

التصورات العقائد، ومناهج التفكير-، ومن النّاحية العملية السلوكية – الأخلاق، والعبادات، والتشريعات-.

كما تشكّل هذه المنظومة النّوعية التي رسمها المنظور القرآني من كلّيات اعتقادية، وقيمية، وتشريعية سقف التحرّك الإنساني على المستويين: – التنّظيري والتنفيذي – ، مقدما بديلا شاملا، وأنموذجا حضاريا عالميا، يعالج مشاكل العصر الأساسية، مقدّما لها حلولاً تفوق نوعياً الحلول التي يقدمها الغرب.

وعلى أساس تمثّل هذه المنظومة في الفهم والتطبيق تتوجّه الأمة والمجتمع والأفراد صوب فضاء واسع هو فضاء الإنسانية جمعاء على امتدادها في الزمان والمكان، واضعا نصب عينيه رؤية مستقبلية، تبعث فيه حركية إيجابية نحو تحقيق مشروع عالمي يستهدف تصويب وتسديد مسار الإنسانية، وتكميل جوانب النّقص فيها، ممّا يدفع بالحركة الإنسانية نحو مزيد من التكامل والرقي البشري في عالمي الروح والمادّة.

وبناء على الأبعاد المفصلة الآنفة الذكر يمكن أن نستشف جملة من عناصر التميز في المنظور القرآني لبناء المجتمع كما سيتضح في العنصر الآتي:

ثالثا- خصائص المَنظور القرآني في بناء المجتمع:

اتّصف المنظور القرآني في بناء المجتمع بعدّة خصائص وعناصر تميز، نذكر منها ما يأتي:

1- الشمولية في النظر: المقصود بشمولية المنظور القرآني هو استيعابه لكل متطلبات بناء المجتمع منطلقا، ومنهجا، ومقصدا .

وتتجلّى شمولية هذا المنظور في عدة مناحي، نذكر منها ما يأتي:

أ- من حيث مصادر بناء المجتمع: التي ارتكزت على المرجعية الإسلامية بكلياتها العقدية والتشريعية والقيمية، فشكلت المنطلق والمنهج والمقصد في عملية بناء المجتمع.

ب- من حيث استيعاب استعدادات المجتمع: تميز المنظور القرآني بالقدرة على مخاطبة واستقطاب أفراد المجتمع بكل أطيافه وتنوعاته الثقافية والاجتماعية، كما راعى الخطاب القرآني مجموع ملكات الإنسان وقواه المودعة فيه، بوصفه النّواة الأولى للمجتمع.

جـ- من حيث المواثيق المكلف بها: تتمثل في تفعيل كليات الاستخلاف وفق منهج الله في الأرض، الذي يعدّ بمثابة بوصلة توجيه يسير المجتمع وفقها في مسار أفقي يتعلق

المنارة للاستشارات

بروابطه الاجتماعية والكونية، ومسار تصاعدي يتعلق بروابطه العلوية الإلهية.

د- من حيث الإحاطة بمتطلبات بناء المجتمع: تشخيصا لأدوائه، وعلاجا لمشكلاته وتصويبا لمساره، ملبيا لكل تطلعاته الروحية، ومذلّلا لحركيته التسخيرية التعميرية.

هـ- من حيث المنهج المرسوم له والهدف المتوخّى: سعى المنظور القرآني إلى ضبط حركية المجتمع على أساس منظومة متكاملة تحوي أرضية فكرية، وقيم أخلاقية، وعناصر منهجية، تشكّل بمجموعها عامل بعث وتحريك للطاقات الاجتماعية في توافق وانسجام، تتناغم فيه حركية الفرد، مع النشاط الاجتماعي، من أجل تحقيق مقصد أساسي هو إقامة أنموذج حضاري متميّز، يزاوج بين السموّ الإيماني والأخلاقي، والترقّي التعميري المادي، مفعّلا مرجعية الأمة في أرض الواقع.

2- التكاملية في أنساق العلاقات: تميّز المنظور القرآني في بناء المجتمع بتناسق بنائي، وترابط وظيفي تكاملي بين وحداته، ابتداء من الإنسان، بوصفه النواة الأولى لعملية التغيير، ثم المجتمع في مختلف أنساق علاقاته العلوية الإلهية وروابطه الأفقية الإنسانية والكونية، وصولا إلى بناء الصّرح الحضاري، الذي يمكّن الأمّة من تبوّأ مرتبة الريادة والشهود الحضاري.

3- الفعّالية الواقعية:من عناصر التميّز في المنظور القرآني أنه وثيق الصلة بالواقع ومتطلّباته، بل إن من مقاصده الكبرى التفاعل مع الواقع - الإنساني والكوني- هيمنة وإشرافا، وتصويبا.

وعلى هذا الأساس اتّجه هذا المنظور إلى واقع الإنسان كفرد وواقعه كعضو في المجتمع، محاولا تشخيص مشكلاته وعلاجها، وفقه متطلّباته، وتلبية احتياجاته، وترتيب علاقاته، وتنظيم قوانينه العامة والخاصة. ولهذا فالمنظور القرآني ليس مجرد مبادئ مثالية نظرية، بل هو مثل وقيم عليا منسجمة مع العمل والتطبيق.

كما تميّز المنظور القرآني بالقدرة على وضع المجتمع في دائرة الحركة والعطاء والتأثير، مانحا إيّاه طاقة وقوّة حركية دافعة نحو السموّ والتكامل في عالمي المادّة والروح. كما بيّن القرآن الكريم المداخل المناسبة لبعث الفعّالية في حياة المجتمع، عبر استثمار الطاقات المذخورة فيه وتحويلها إلى حركية إيجابية، وفعّالية واقعية، تسعى وتضرب في الأرض في

المنارة للاستشارات

إطار ممارسة مهامّ الخلافة.

4- الفقه العميق بمداخل التغيير، والتدرّجية في عملية البناء:

خَبِر المنظور القرآني المعادلة المناسبة لبناء المجتمع، وهو ما تجلى في امتلاك القدرة على التعامل مع واقع تداخلت فيه السنن الاجتماعية مع السنن الكونية.

يتطلّب تفعيل عملية التغيير في هذا المجال المعقّد، فقها عميقا بالمعادلة المناسبة للتكيّف الإيجابي مع تحدّيات الواقع، وحسن التعامل مع العوائق والمثبّطات بإيجاد المساحات الضيّقة، والمناورة فيها لخدمة رسالة المجتمع، وتجنّب المصادمات التي تهدّم المنجزات.

كما يتطلّب مراعاة التدرّج في عملية التغيير، خاصة إذا تعلّق الأمر بتغيير التصورات والمفاهيم وأنماط التفكير، ممّا يتطلّب جهودا نوعية ممنهجة، وحكمة ومصابرة لتحصيل الثّمرة المرجوة، وهي التكوين الشامل والنّوعي للإنسان الذي يتحمّل عبء بناء المجتمع الذي يعد مدخلا للتمكين الحضاري في الأرض.

نذكر من نماذج تمثّل المنظور القرآني لمبدأ التدرج النهج الذي سلكه في إعادة بناء منظومة تفكير الإنسان الجاهلي، فقد تنزّل الوحي في مجتمع لاحت فيه ملامح السذاجة والبدائية في التصور والتفكير والمشاعر و المشكلات(96)، وهو ما يمكن ملاحظتها" في طريقة معارضتهم لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بادّعائهم أنه مجنون، قال تعالى في شأنهم: ﴿ **وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ (97)، وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة، فهو أسلوب من لا يجد إلاّ الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان، كما يفعل السذّج البدائيون "(98).

ولهذا سعى القرآن الكريم لأن يتدرّج بهم في بناء تفكيرهم مراعياً لمستواهم العقلي، ومخاطباً إياهم بما تفهمه عقولهم إلى أن أوصلهم في فترة وجيزة إلى فهم "قانون السببية، والقانون التاريخي، ومنهج البحث الحسي التجريبي "(99)، وهو الفهم الذي يعدّ مدخلا لامتلاك البشرية مفاتيح التمكين في الأرض، ف" الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتتعمّقها وتتقصّاها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجملها"(100)، و ما كان ذلك ليتحقق لولاها .

المنارة للاستشارات

5- الأخلاقية: من المقاصد الأساسية للمنظور القرآني تعزيز وصيانة القِيَم الاجتماعية، وتكميل المبادئ الأخلاقية المشتركة بين الأمم والثقافات والحضارات، كالعدل، والحرية، والمساواة، واعتمادها كمنطلقات أساسية للإصلاح والبناء في الدّائرة الإسلامية، وتقويم الانحراف الحاصل في الدائرة الإنسانية، ولهذا تعدّ منظومة الأخلاق الرّوح السارية في المجتمع المنشود.

6- السننية: تُعتبر خاصية السننية عنصرا متجذرا في المنظور القرآني لبناء المجتمع، يتجلّى في التزامه الصّارم بالنواميس والقوانين التي تحكم عملية تغييره، تشخيصا لعوائقه وجذوره، وتصحيحا وتدعيما لمساره، وبهذا الانضباط يعتبر هذا المنظور فقه وتسخير السّنن بشقّيها الاجتماعي والكوني مفتاحا مهمّا لعملية التمكين الحضاري، حفاظا على منجزاته، وديمومة لريادته.

7- المقصدية: امتلك المنظور القرآني سعة أفق في استشراف مسار بناء المجتمع، حيث كان مقصده بناء بناء صرح حضاريٍّ نوعيّ في قوة ومتانة أسسه، وشمول وتكامل مفرداته، وسموّ قِيمهَ، وعلو مكانته، وشهود حضارته. يستوعب الحياة البشرية بمختلف مجالاتها أطوارها، ملبّيا لتطلّعات الأفراد الروحية ورغباته المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحقّقا لكرامتهم ومكوّنا لشخصيتهم، في انسجام مع الفطرة الإنسانية.

الخاتمة

نخلص من خلال العرض التفصيلي السابق إلى النتائج الآتية:

1- تجلى المنظور القرآني في بناء المجتمع في مجموعة من الأبعاد المتكاملة، بداية بالأبعاد التأسيسية التي تعد العُمَد أو الدعامات الرئيسة، وهي: **أ-** الصياغة العقدية والإيمانية للمجتمع **ب-** الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع.**ج-** الصياغة التشريعية الإجرائية.**د-** الصياغة الفكرية المعرفية.

ثم يأتي: **ه-** البعد السنني الحركي الذي يأخذ على عاتقه تنزيل الأبعاد العقدية والأخلاقية والتشريعية في أرض الواقع، وفق فقه عميق بسنن التمكين والريادة، وصولا إلى تحقيق الثمرة المرجوة وهي التحقق بـ: **و-** بعد الشهود الذي يعبر عن المكانة اللائقة التي

المنارة للاستشارات

يتوجب على الأمة تمثلها، بوصفها أمة الوسطية والشهادة التي تحمل أعباء تبليغ رسالة الإسلام وإقامة الحجة على الأناسي .

2- من أبرز ثمار تأسس المجتمع على هذه الدعامات -وفق المنظور القرآني- تشكل معالم بناء أخلاقي شامل، تحرّر فيه المجتمع بتمثّله لكلّيات إيمانية تعمّق صلته بالله، ممّا يفضي إلى تناغم حركيته مع الروابط الإنسانية والكونية، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تتجلّى في التّكافل، والتّعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكل ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمّة، ويدعّم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان، ضامنا بذلك صلاحية واستمرارية المجتمع الإسلامي في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثّل كلّيات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

3- تتجلى مخرجات عملية بناء المجتمعِ وفق المنظور القرآني في تمثّل نوعيّ للحضارة، من حيث التحقّق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقيّ التعميري المادي.

4- اتّصف المنظور القرآني في بناء المجتمع بعدة خصائص وعناصر تميز، نذكر منها ما يأتي: أ- الشمولية في النظر.ب- التكاملية في أنساق العلاقات.جـ- الفعّالية الواقعية. د- الفقه العميق بمداخل التغيير والتدرّجية في عملية البناء.ه- الأخلاقية.و- السننية. ز- المقصدية.

5- إن المنظور القرآني في بناء المجتمع الذي أرسى دعائمه النبي صلى الله عليه وسلم في تجربة نوعية أثمرت أنموذجا فريدًا، يستلهم منه العناصر الحيوية للإصلاح والتجديد، قصدا إلى بعث الحياة فيها من جديد، في عصر هيمنت فيه النزعات العصبية والعنصرية المقيتة والمادية الجاسية، التي أصبحت مُبرمجة ومُحركة لحياة الإنسانية جمعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العامين

الهوامش:

المنارة للاستشارات

[1]: الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، مادة (ج.م.ع) (بيروت: دار الرسالة، ط8، 1426ه-2005م، ص1399.

[2]: مجمع اللغة العربية، أحمد الزيات بالاشتراك، المعجم الوسيط ، مادة (ج.م.ع) (القاهرة: دار الدعوة، 2010م)، ص 136.

[3]: علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع، ص16.

[4]: أبو عجوة، محمد نجيب، المجتمع الإسلامي دعائمة وآدابة في ضوء القرآن، القاهرة،مكتبة مدبولي، 2000 م، ص 16.

[5]: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع،(دمشق دار الفكر ، 1989م)، ص 16.

[6]: المرجع السابق، ص 17.

[7]: نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي (جدة: الدار السعودية، ط1، 1997)، ص 109.

[8]: أبو عجوة، المجتمع الإسلامي، مرجع سابق، ص 17.

[9]: انظر: علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع ، مرجع سابق، ص18.

[*]:ركّزنا على التوحيد في هذا السياق؛ لأنه يمثّل حجر الزاوية في منظومة الاعتقاد، وبالتالي تستمد الكليات الاعتقادية الأخرى وجودها من التوحيد، وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن التوحيد يتضمن الأصول الاعتقادية الأخرى.

[10]:اسماعيل راجي الفاروقي، اسلامية المعرفة – المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الاسلامي(بيروت: دار الهادي، 1421ه-2001م)، ص91.

[11]: عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية - المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني- ، طبعة إلكترونية 1429/08/08ه- 2008/08/09م، ص100.

[12]: الذاريات/56.

[13]: انظر محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي(القاهرة: دار الشروق، ط2، 2009)، ص 32.

[14]: سورة مريم الآية: 42-45.

[15]: سورة المؤمنون الآية: 86-91.

[16]: انظر: عثمان بن جمعة ضميرية، منهج القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية،http://www.tafsir.net/article/4406. تاريخ النشر 25 :ذو القعدة 91436) /2015/9.

[17]: سورة الواقعة الآية: 63-74.

[18]: محمد المبارك، العقيدة في القرآن الكريم، نسخة إلكترونية، ص81.

[19]: عبد المجيد عمر النجار،الإيمان بالله و أثره في الحياة(بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م)، ص 196.

المنارة للاستشارات

[20]: سورة الإسراء :الآية 82.

[21]: انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج4، ص2248.

[22]: انظر: المصدر نفسه، ج4، ص2248.

[23]: الحجرات/13.

[24]: الإمام أحمد، المسند (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1414ه- 1993م)، رقم:1742.

[25]: المائدة /2.

[26]: النور/31.

[27]: العنكبوت/69.

[28]: آل عمران/175.

[29]: الكهف/110 .

[30]: آل عمران/102.

[31]:النحل/127 .

[32]: ابراهيم /07.

[33]: انظر عبد العزيز برغوث، موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضر عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي .www.nuronline.com بتاريخ: 03-11-2011 .

[34]: القلم/04.

[35]: رواه أحمد، واللفظ له وأبو داود، وزاد مسلم: "يغضب لغضبه ويرضى لرضاه".

[36]: آل عمران /164.

[37]: سورة الأحزاب الآية:21.

[38]: سورة الذريات الآية:56 - 57.

[39]: يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، دار الشهاب-الدوحة،ط2، 1391ه-1971م ،ص207.

[40]: سورة العنكبوت: الآية: 2.

[41]: سورة الملك الآية: 14.

[42]: سورة فاطر الآية :14.

[43]: يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مرجع سابق، ص206.

[44]:سورة ابراهيم :الآية 23.

[45]: انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق الطبعة الشرعية 32، 1423/2003 ج4، ص488.

[46]:سورة النحل: الآية 97.

المنارة للاستشارات

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

[47]:محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، جامع البيان في تأويل القرآن، ت أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،ط1، 1420 هـ - 2000 م، ج17،ص290.

[48]:ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي – بيروت،ط7، 1426هـ - 2005م، ص44.

[49]:المدثر/18.

[50]:الأنعام/50.

[51]:الأعراف/176.

[52]: انظر: طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي(عين مليلة: دار الهدى، دت)، ص124.

[53]:البقرة/219.

[54]:ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص354.

[55]:يونس/24.

[56]:التحرير والتنوير، ج11، ص114.

[57]:آل عمران/190-191.

[58]:محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم(مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1990م).ج4، ص246.

[59]:البقرة:258.

[60] انظر: زكرياء بشير إمام، أساليب الحجاج في القرآن الكريم –نماذج من الحجج المستنبطة–(الخرطوم: المركز القومي للإنتاج الإعلامي، 1415ه-1995م)، ص47-49 .

[61]:آل عمران:59.

[62] انظر: الخازن، علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: محمد علي شاهين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ). ج1، ص253.

[63] الأعراف: 57.

[64] انظر: سعيد اسماعيل صيني، قواعد أساسية في البحث العلمي(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1994)، ص 73 .

[65] الأنعام: 38.

[66] الإسراء: 38.

[67] الزخرف: 35.

[68] الأنعام: 11.

[69] الزمر: 21.

[70] الطور: 35.

[71] الغاشية:17-20.

المنارة للاستشارات

[72] انظر: القاسمي، جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ). ج9، ص462.

[73]: انظر عبد المجيد النّجار، فقه التحضّر الإسلامي، مرجع سابق، ص 65-72 .

[74]: خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1983م). ص8.

[75]: عبد المجيد عمر النجّار، فقه التحضّر الإسلامي(بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999م) ص 66 .

[76]: سورة الأعراف:/130-131 .

[77]: عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص 65.

[78]: سورة التكاثر:الآية 1-2.

[79]: عمار جيدل، ماهية الإنسان وعلاقتها بحريته و صلته الاجتماعية، (استنبول: شركة نسل، ط1، 1422هـ-2001م)، ص 34.

[80]: سورة الحجرات:الآية 13.

[81]: عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الكتاب رقم 4 (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، رمضان 1403هـ)، ص51.

[82]: سورة الأحزاب:الآية 62.

[83]: الروم/ 09.

[84]: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مج 5، ص 2761.

[85]: انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية (الجزائر: دار قرطبة، ط1، 1425هـ-2004م)، ص 74.

[86]: بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، موقع: www . alfikr.com/cat . egories.php?id=3 التاريخ 12-6-2014.

[87]: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية و الثقافة السننية،مرجع سابق ، ص 74.

[88]: سورة البقرة :الآية 251.

[89]: سورة الانبياء :الآية 18.

[90]: بوقفة رؤوف، نظرية التدافع و التجديد عند طيب برغوث، مقال سابق.

[91]: انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية و الثقافة السننية، مرجع سابق، ص 75.

[92]: سورة آل عمران :الآية:140.

[93]: سورة محمد:الآية 38.

[94]: البقرة/ 143.

[95]: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، م1، ص 132.

المنارة للاستشارات

[96]: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص3654.

[97]: سورة القلم:الآية 51.

[98]: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج6، ص3651.

[99]: انظر: عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص48-61.

[100]: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج1،ص40.

The quranic vision in building the society -the dimensions and the particularities –

Dr. Amrane BOUDEGZDAM

Faculty of Islamic Sciences - University of Tlemcen-Algeria

Abstract:

We want from this article to show the basic role of quran in building a better society. That view of quran that build the values of life in a quranic society, that’s why the quran is an important source to build a better society and civilization. That’s why the quran is a very important guide in building civilization all over places and times because it is a source that not passed by a time or place and it is very important to try to build a quranic society.

key words: the quranic vision, the society, the dimensions and the particularities.

المنارة للاستشارات